

تفسير سورة الأحزاب

وهي مدنية

روى الإمام أحمد عن زرّ قال : قال لى أبى بن كعب : كآين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كآين تعدما ؟ قال : قلت : ثلاثا وسبعين آية . فقال : قُط ! لقد رأيتها وإنما لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : « الشيخ والشيخة إذا فارقا زوجها البتة ، نكالا من الله ، والله عليهم (١) حكم » . ورواه النسائي (٢) . وهذا إسناد حسن ، وهو يقتضى أنه كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضا ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
وَأَتَّبِعْ مَا يوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ كَانَ يَمَسُّكُمْ فَلْيُخَيِّرُوا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١﴾

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا ، فلأن يأمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى . وقد قال طلق بن حبيب : التقوى : أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أى : لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى : فهو أحق أن تتبع أوامره ونظمه ، فإنه عليهم بمواقب الأمور ، حكمهم فى أقواله وأفعاله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَتَّبِعْ مَا يوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى : من قرآن ورسنة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَسُّكُمْ فَلْيُخَيِّرُوا ﴾ أى : فلا تخفى عليه خافية ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : فى جميع أمورك وأحوالك ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أى : وكفى به وكيلا لمن توكل عليه وأتاب إليه .

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جُوفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْزَاقَكُمْ الَّتِي تَطْلُقُ مِنْهُنَّ أَشْهُكُمْ وَمَا جَعَلَ أَرْزَاقَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٢﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَسْبَاطِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَقْلُوبُوا أَسْبَابَهُمْ فَلْيَحْزَنْكُمْ فِي الَّذِينَ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣﴾

(١) فى الطبوعة : « عزيز حكم » ، وما ابتناه من المسند والمنظومة .

(٢) للسند (٥ / ١٣٢) والشافى فى الكبرى (٧١٥٠) .

عُمْدَةُ التَّفْسِيرِ

عَنْ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ

مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْقُرْآنِيُّ الْعُظْمَاءُ

لِلْعَلَامَةِ الْمُحَقِّقِ

الْشَيْخِ أَحْمَدُ بْنُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ

أَفَرُ الْبَارِزِ

الْمَوْزُونِ

ثَلَاثُ الْوَقَائِدِ

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الإبناء من كل وجه ، في الخلوة بالمحارم وغير ذلك ، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة : يا رسول الله ، كنا ندعو سلالا إنا ، وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل على ، وإنني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئا فقال ﷺ : «أرضعني تحرمي عليه ، الحديث (١) . ولهذا لا نسخ هذا الحكم ، أباح تعالى زوجة الدعوى ، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة ، وقال : ﴿ لَكُنِي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَأُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وقال في آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلَ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ، احترازاً عن زوجة الدعوى ، فإنه ليس من الصلب ، فاما الابن من الرضاة ، فممنول منزلة ابن الصلب شرعاً ، بقوله ، عليه السلام ، في الصحيحين : « حرموا من الرضاة ما يحرم من النسب » (٢) . فاما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتعجيل ، فليس مما نهى عنه في هذه الآية ، يدلل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي عن ابن عباس ، قال : قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلة بنتي عبد المطلب على حمرات لنا من جعفر ، فجعل يطلع أنفسنا ويقول : « أُبَيُّ لَا تَرْمُوا الْجِمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ » (٣) . قال أبو عبيدة وغيره : « أُبَيُّ » : تصغير ابني . وهذا ظاهر الدلالة ، فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر ، وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ ﴾ في شأن زيد بن حارثة ، وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان ، وأيضاً ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك ، قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا بني » ، ورواه أبو داود والترمذي (٤) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَقْلُوا آبَاءَهُمْ فِئْتَابُكُمْ فِئْتَابُ اللَّهِ وَمَا فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ : أمر تعالى برد أنساب الأديعاء إلى آبائهم ، إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا آباءهم ، فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، أي : عرضاً عما فاتهم من النسب ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء ، وتبعته ابنة حمزة تنادى : يا عم ، يا عم . فأخذها على وقال لفاطمة : دونك ابنة عمك فأحسنتها . فاختصم فيها علي ، وزيد ، وجعفر في أيهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة ، فقال علي : أنا أحق بها وهي ابنة عمي - وقال زيد : ابنة أختي . وقال جعفر بن أبي طالب : ابنة عمي ، وخالتها تحتى - يعني أسماء بنت عميس - فقضى النبي ﷺ لخالتها ، وقال : « الحالة بمنزلة الأم » . وقال لعلي : « أنت مني ، وأنا منك » . وقال لجعفر : « أشبهت خلقي وخلقك » . وقال لزيد : « أنت أخوتنا ومولانا » (٥) . ففي هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها : أنه ، عليه الصلاة والسلام ، حكم بالحق ، وأرضى كلاً من المتنازعين ، وقال لزيد : « أنت أخوتنا ومولانا » ، كما قال تعالى : ﴿ فَيُؤْتِيكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ .

(١) مسلم (١٤٥٣ / ٢٦) .
(٢) المسند (٣١١ / ١) وأبو داود (١٩٤٠) وابن ماجه (٣٠٢٥) وصححه الألباني .
(٣) مسلم (٢١٥١ / ٣١) وأبو داود (٤٩٦٤) والترمذي (٤٨٣١) .
(٤) البخاري (٣٦٩٩) .
(٥) البخاري (٤٧٩٦) ومسلم (١٤٤٥ / ٣) .

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المنوى أمراً معروفاً حسياً ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تفسير زوجته التي يظهر منها بقوله : أنت على كظهر أمي أما له ، كذلك لا يصير الدعوى ولداً للرجل إذا نبأه فدعاء ابنا له ، فقال : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ لِلَّذِينَ تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ مُهَانِكُمْ ﴾ ، فكسوله : ﴿ مَا مِنْ مُهَانَتِهِمْ إِلَّا مُهَانَتُهُمْ لِلَّهِ وَاللَّيْلِ وَلِدَعْوَاهُمْ ﴾ [المائدة : ٢٠] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ : هذا هو المقصود بالنفي ؛ فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ ، كان النبي ﷺ قد نبأه قبل النبوة ، وكان يقال له : « زيد ابن محمد » ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ ، كما قال تعالى في أثناء السورة : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَحَاشَ النَّبِيِّنَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، وقال مهنا : ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ يعني : تبييكم لهم قول لا يقتضى أن يكون ابنا حقيقياً ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ قال سعيد بن جبير : ﴿ يَقُولُ الْحَقُّ ﴾ أي : العدل . وقال قتادة : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ أي : الصراط المستقيم . وقد ذكر غير واحد : أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش ، كان يقال له : « ذو القليين » ، وأنه كان يزعم أن له قليين ، كل منهما بعقل وافر . فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليه . هكذا روى العوفي عن ابن عباس . وقال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، واختاره ابن جرير . وروى الإمام أحمد عن ابن أبي ظبيان قال : قلت لابن عباس : أرايت قول الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ، ما عني بذلك ؟ قال : قام رسول الله ﷺ يوماً يصلي ، فخطر خطرة ، فقال المناقرون الذين يصلون معه : ألا ترون له قليين ، قلباً معكم وقلباً معهم ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ . وهكذا رواه الترمذي ثم قال : وهذا حديث حسن (١) .

وقال الزهري ، في قوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ قال : بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ، فحُرب له مثل ، يقول : ليس ابن رجل آخر أبوك . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : أنها نزلت في زيد بن حارثة . وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير ، والله أعلم . وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ مَوْأَفَاقَ اللَّهِ ﴾ : هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأديعاء ، فأمر تعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط . روى البخاري عن عبد الله بن عمر ؛ أن زيدا بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ مَوْأَفَاقَ اللَّهِ ﴾ . وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي (٢) .

(١) المسند (٢٤١٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » والترمذي (٣٦٩٩) .
(٢) البخاري (٤٧٨٢) ومسلم (٢٤٢٥ / ٦٢) والترمذي (٣٢٠٩) والنسائي في الكبرى (١١٣٩٧) .

ولكن لا تجوز الخلوة بهن ، ولا يتيسر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع ، وهو من باب وقوله تعالى : ﴿ وَارْزُقْنَهُنَّ مِنْهُنَّ ﴾ أى : فى الحرمة والاحترام ، والإكرام والتوقير والإعظام ، إطلاق العبارة لا إثبات الحكم .

وقوله: ﴿وَأَرْثُوا الْأَرْحَامَ بِمَعْشَرِ أَهْلِ بَيْتِكُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والمهاجرين ﴿أَيَ: القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والانصار﴾ وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالخلف والمواخاة التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجرون يرثون الانصارى دون قرباتهم وذوى رحمهم، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبير، وغير واحد من السلف والخلف.

وقوله : ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا لِي أَرَأَيْتُمْ مَعْرُوفًا﴾ أى : ذهب الميراث ، وبقي النضر والبر والصلوة والإحسان والوصية . وقوله : ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أى : هذا الحكم ، وهو أن أولى الأحام بعضهم أولى ببعض ، حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول ، الذى لا يبدل ، ولا يغير . قاله مجاهد وغير واحد . وإن كان تعالى : قد شرع خلافه فى وقت لما له فى ذلك من الحكمة البالغة ، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأولى ، وقضائه القدرى الشرعى .

وَأَذَانًا مِّنَ الْيَتِيمِ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ وِثَاكَ وَرُبُوحَ وَإِرَاقَ مِمْسَاكِ بْنِ مَرْيَمَ وَخِذَانَا مِنْهُمْ مِثْقَالَ عَلَاقَةٍ ۚ لَّيْسَ لَ الْغَدَّاقِينَ عَنِ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة ، وبقيّة الانبياء : أنه أخذ عليهم العهد واليثاق في إقامة دين الله ، وإبلاغ رسالته ، والتعاون والتناصر والاتفاق ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَكَفَمْتُ لَهُمْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ تَتَّبِعُونَ بِهِ وَتَنْسَوْنَ عَنْ آلِهَاتِكُمْ أَنْ قُرْآنًا أُفْرَزُوا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١] . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم ، وكذلك هذا . ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة ، وهم أولو العزم ، وهو من باب عطف الخاص على العام ، وقد صرح بذكرهم أيضاً في هذه الآية ، وفي قوله تعالى : ﴿يُضِلُّكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا تُضِلُّونَ بِهِ نَفْسًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] ، فذكر الطرفين والوسط ، الفاتح والخاتم ، ومن بينهما على هذا الترتيب . فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها ، كما قال : ﴿وَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ بَيْنِ السُّبُلِ فَانظُرُوا إِلَى دِينِ اللَّهِ فَإِنْ كَانَ هِيَ مِنْهُ فَلْيُتْلَ عَلَيْهِمْ نَسْأَلُ اللَّهَ لِلْمُسْلِمِينَ الْخَيْرَ الْمَكُونِ ﴾ [الحجرات: ١٥] .

المعنى : إذا اختلفتم في شيء من بين السبل فأنظروا إلى دين الله فإذا كان هو منه فليتلوه عليه . نحن نسأل الله للمسلمين الخير المكون .

وقوله : ﴿يَسْأَلُ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ قال مجاهد : المبلغين المؤدين عن الرسل . وقوله : ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أى : من أتهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى : موجعاً ، فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، ونضفوا الاسم وأفضوا لهم عن الحق المبين ، الواضح الجلى ، الذى لا

وقد جاء في الحديث: «من ادعى لغير آبيه، وهو يعلمه كثر» (١). وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد، في التبرى من النسب المعلوم، ولهذا قال: ﴿ادْعُهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِذَا كُنْمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾: أى: إذا نسيتم بعضهم إلى غير آية في الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، فإن الله قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه، كما أُرشد إليه في قوله أمراً عباده أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا فِي نَسِيَاتٍ أَوْ أَخْطَاآتٍ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: ﴿قال الله: قد فعلت﴾ (١). وفي صحيح البخارى، عن عمرو بن العاص: قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ، فله أجر» (٢). وقال ماهنا: ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به، ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً﴾: أى: وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْغُلُوبِ فِي آمَانَتِكُمْ وَلَكِنْ بِمَا خَلَدْتُمْ بِمَا كُنتُمْ تَلْعَنُونَ﴾.

يَتَّبِعُونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْمُهْجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَقْعَلُوا إِلَيَّ أَوِيًّا كَيْفَ مَعْرُوفًا
الَّتِي أَوْلَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ، ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم مُقتداً على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَكُونُ لِيَمَانٍ بُيُوتُهُمْ لَمْ لَا يَخْلُوا لِيَ أَنفُسِهِمْ خُرْجاً مِمَّا قُضِيَتْ رِيسَالُهُمْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] . وفي الصحيح : « والذي نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » (٤) . وفي الصحيح أيضاً أن عمر قال : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى . فقال : « لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك » : فقال : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شيء حتى من نفسى . فقال ﷺ : « الآن يا عمر » (٥) .

ولهذا قال تعالى في هذه الآية : ﴿الَّذِي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ . وردى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، وإن ترك دنيا أو خصاعا ، فلأبى فانا مولاه » . تقدم به البخارى (٦) .

(١) البخارى (٣٥٠٨) .
(٢) مسلم / ١٢٦ / ٢٠٠ .
(٣) البخارى (٧٣٥٢) .
(٤) البخارى (١٤) :
(٥) البخارى (١٦٣٢) .
(٦) البخارى (٤٧٨١) .

سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا واجتمعوا إلى بلادهم . وقد رواء مسلم في صحيحه عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه قال : كنا عند حذيفة بن اليمان فقال له رجل : لو أدرت رسول الله ﷺ ، قاتلت معه وأبليت . فقال له حذيفة : أنت كنت تفضل ذلك ؟ لقد أكرتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقوف ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا رجل يأتي بخبر القوم ، يكون معي يوم القيامة ؟ » . فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ، ثم الثالثة مثله . ثم قال : « يا حذيفة ، قم فأتنا بخبر من القوم » . فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم ، فقال : « انتنى بخبر القوم ، ولا تذرهم على » . قال : فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يصلي ظهوره بالنار ، فوضعت سهما في كبد قوسى ، وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ : « لا تذرهم على » ، ولو رميته لأصبت . قال : فرجعت كأنما أمشي في حمام ، فأتيت رسول الله ﷺ ، ثم أصابني البرد حين فرغت وفورض فأنخرت رسول الله ﷺ ، والبسنى من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها ، فلم أزل نائما حتى الصباح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ : « قم يا نومان » (١) .

وقوله : ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أى : الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ بنو قريظة ﴿وَإِذْ رَأَيْتُمُ الْأَعْيُنَ وَتَلَقَّتِ الْقُلُوبُ الْمَنَاجِرَ﴾ أى : من شدة الحزن والفرح ﴿وَتَطَوَّعَ بِاللَّهِ الظُّنُونُ﴾ . قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك . وقال ابن إسحاق في قوله : ﴿وَإِذْ رَأَيْتُمُ الْأَعْيُنَ وَتَلَقَّتِ الْقُلُوبُ الْمَنَاجِرَ وَتَطَوَّعَ بِاللَّهِ الظُّنُونُ﴾ : ظن المؤمنون كل ظن ، ولحم الشقاق حتى قال معتب بن قشير - أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن ناكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يقدّر على أن يلعب إلى الغائط . وقال الحسن في قوله : ﴿وَتَطَوَّعَ بِاللَّهِ الظُّنُونُ﴾ : ظنونا مختلفة ، ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

﴿هَٰذَاكَ أَتَى الْمُتَشَكُّوْنَ وَلَزَلُوا زَلَالًا شَدِيدًا﴾ ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ لَا قُلُوبَيمَ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لَا مَقَامَ لَكَ فَالْحِمَارُ وَيَسْتَنْقِذُ قَبْرِيكَ مِنْهُمْ نَحْنُ نَقُولُ إِنَّ يَوْمَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال ، حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم : أنهم ابتلوا واختبروا ودركلوا وزلزلوا شديداً ، فحينئذ ظهر الشقاق ، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في نفوسهم ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ لَا قُلُوبَيمَ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أما المنافق ، فنجس نفاقه ،

(١) سلم (١٧٨٨ / ٩٩) .

والذي في قلبه شبهة أو حسكة ، لصف حاله فتفتس بما يجده من الوسواس في نفسه ؛ لضعف إيمانه ، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال . وقوم آخرون قالوا كما قال الله : ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعنى : المدينة ، كما جاء في الصحيح : « أريت أفي الشام [دار هجرتك] أرض بين حرتين فذهب وهلى أنها هجر ، فإذا هي يثرب » ، وفي لفظ : « المدينة » (١) .

وقوله : ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أى : ها هنا ، يعنون عند النبي ﷺ في مقام الرابطة ﴿فَارْجِعُوا﴾ أى : إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ﴾ قال ابن عباس : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السرقة . وكذا قال غير واحد . وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك : هو أوس بن قظي ، يعنى : اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة ، أى : ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، فهم يخشون عليها منهم . قال الله تعالى : ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ أى : ليست كما يزعمون ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أى : هرباً من الزحف .

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا لَكُمْ عَهْدًا﴾ أى : عاهدوا ، يعنون عند النبي ﷺ ﴿فَارْجِعُوا﴾ أى : إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ﴾ قال ابن عباس : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السرقة . وكذا قال غير واحد . وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك : هو أوس بن قظي ، يعنى : اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة ، أى : ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، فهم يخشون عليها منهم . قال الله تعالى : ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ أى : ليست كما يزعمون ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أى : هرباً من الزحف .

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا لَكُمْ عَهْدًا﴾ أى : عاهدوا ، يعنون عند النبي ﷺ ﴿فَارْجِعُوا﴾ أى : إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ﴾ قال ابن عباس : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السرقة . وكذا قال غير واحد . وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك : هو أوس بن قظي ، يعنى : اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة ، أى : ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، فهم يخشون عليها منهم . قال الله تعالى : ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ أى : ليست كما يزعمون ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أى : هرباً من الزحف .

ثم قال تعالى : ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِيكُمْ مِنْ اللَّهِ﴾ أى : يطيعكم ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ فَرْجًا وَلَا مَصِيرًا﴾ أى : ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا معيذ .

(١) البخارى (٧٠٣٥) وما بين المقتفين منه ومن المطبوعة ، وهو ليس في المطبوعة .

شواهد من طرق أخر . روى الإمام أحمد عن أنس قال : عمى أنس بن النضر سميت به ، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ، فسق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه ، لئن أرايت الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ [يوم] (١) أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس : يا أبا عمرو أين ؟ وأهأ لريح الجنة أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قُتل قال : فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته - عمتي الربيع ابنة النضر - : فما عرفت أختي إلا بيناته . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْوهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ بِدَلُوا نَجْدِيلاً ﴾ . قال : فكانوا يرون أنها نزلت فيه ، وفي أصحابه . ورواه مسلم والترمذي والنسائي .

وروى ابن أبي حاتم عن أنس أن عمه - يعنى : أنس بن النضر - غاب عن قتال بدر ، فقال : غيبت عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين ، لئن الله أشهدني قتالاً للمشركين ، ليرين الله ما أصنع . قال : فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إني اعتذر إليك عما صنع هؤلاء - يعنى : أصحابه - وأبرأ إليك عما جاء هؤلاء - يعنى : المشركين - ثم تقدم فلقية سعد - يعنى : ابن معاذ - دون أحد ، فقال : أنا معك . قال سعد : فلم أستطع أن أصنع ما صنع . قال : فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف ، وطعنة رمح ، ورمية سهم . وكانوا يقولون : فيه وفي أصحابه نزلت : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْوهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ . وأخرجه الترمذي والنسائي . وقال الترمذي : حسن (٢) . ولم يذكر نزول الآية (٣) . قال مجاهد في قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْوه ﴾ قال : عهده ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ قال : يوماً فيه القتال فيصدق في اللقاء . وقال الحسن : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْوه ﴾ يعنى : موته على الصدق والوفاء ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل تديلاً . وكذا قال قتادة ، وابن زيد وقال بعضهم : ﴿ نَجْوه ﴾ : نذره .

وقوله : ﴿ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلاً ﴾ أى : وما غيروا عهدهم ، وبدلوا الوفاء بالخدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه ، وما نقصوه كفضل المنافقين الذين قالوا : ﴿ إِنَّا بِيَوْمِنَا غَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِغَوْرَةٍ إِذْ يُبَدِّلُونَ إِلَّا فَرَارًا ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُوكُنَ الْأَدْيَارَ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : إنما يختبر عياده بالخوف والزلازل ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ،

(١) المسند (١٩٣/٣) ، ومسلم (١٤٨/١٩٠٣) ، والترمذي (٣٢٠٠) .

وفي المخطوطة : « فشهد مع رسول الله ﷺ أحد ، هكذا بدون نصب » أحد « ما يبدل على سقوط » يوم » منها ، والذي أثبتاه من البخاري والطبرقة .

(٢) الترمذي (٣٢٠١) والنسائي في الكبرى (١١٤٠٣) وصححه الألباني .

(٣) البخاري (٤٨-٤٩) .

مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم ، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِيَبْلُوكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَلِيُبَلِّغَ أَخْيَرَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، فهذا علم بالشئ بعد كونه ، وإن كان العلم السابق حاصلأ به قبل وجوده . وكذا قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَتَمَّ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْقَبِّ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أى : يصبرهم على ما عاهدوا الله عليه ، ويقامهم به ، ويحافظتهم عليه ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ : وهم الناقضون لمعهد الله ، المخالفون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان ، وعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته وراقة بخلقه هي الغالبة لنقصه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

وَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَعْتَظِهِمْ لَرَبَّنَا إِنَّهُ كَانَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتَالِ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٥٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة ، بما أرسل عليهم من الریح والجنود الإلهية ، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين ، لكانت هذه الریح عليهم أشد من الریح العقيم على عاد ، ولكن قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، فسلط عليهم هواء فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوى ، وهم أخلط من قبائل شتى ، أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذى فرق جماعتهم ، ووردهم خائنين خاسرين بغيتهم وحققهم ، لم يتألوا خيراً لا فى الدنيا ، عما كان فى أنفسهم من الظفر والمنهم ، ولا فى الآخرة بما تحملوه من الآثام فى مبارزة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، بالعداوة ، ومهمهم بقتله ، واستتصال جيشه ، ومن هم بشئ وصدق هم بفعله ، فهو فى الحقيقة كفاعله .

وقوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أى : لم يحتاجوا إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » ، فلا شئ بعده . أخرجاه من حديث أبى هريرة (١) . وفى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم ، اهزمهم وزلزلهم » (٢) .

وفى قوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها ، لم يزعهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون فى بلادهم . قال ابن إسحاق : لما

(١) البخاري (٤١١٤) ، ومسلم (٧٧/٢٧٢٤) .

(٢) البخاري (٢٩٣٣) ، ومسلم (١٧٤٣/٢١) .

انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا: « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » ، فلم تغز قريش بعد ذلك ، وكان هو يغزهم بعد ذلك ، حتى فتح الله عليه مكة . وهذا حديث صحيح ، كما روى الإمام أحمد عن سليمان بن صرد قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « الآن تغزهم ولا يغزونا » . وهكذا رواه البخارى (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ أى : بحوله وقوته ، ردهم خائين ، لم يتألوا خيرا ، وأمر الله الإسلام وأهله ، وصديق وعده ، ونصر رسوله وعبد ، فله الحمد والمنة .

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَّاصِهِمْ وَقَدْ فِ قُلُوبِهِمْ الرِّيبَ قَرِيبًا تَقْتُلُونَكَ وَتَأْسِرُونَكَ قَرِيبًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْفَكُمُكُمْ وَيَكْرَهُمْ وَأَمْرُهُمْ كَأَمْرِي لَمْ تَنْظُرْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قد تقدم أن بنى قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ، ونزلوا على المدينة ، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد ، وكان ذلك بسفارة حمى بن أخطب النضرى - لئنه الله - دخل حصنهم ، ولم يزل يسبهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال : ويحك ، قد جئتكم بعز الدهر ، أتيتك بقريش وأحايشها ، وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستاصلوا محمداً وأصحابه . فقال له كعب : بل والله أيتنى بلداً الدهر . ويحك يا حمى ، إنك مشؤوم ، فدعنا منك . فلم يزل يفتل فى الذروة والغارب حتى أجابه ، واشترط له حمى إن ذهب الأحزاب ، ولم يكن من أمرهم شيء ، أن يدخل معهم فى الحصن ، فيكون له أسوتهم . فلما نقضت قريظة ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه ، وشق عليه وعلى المسلمين جداً ، فلما أيد لله ونصر ، وكبت الأعداء وردهم خائين بأخسر صفقة ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً ، ووضع الناس السلاح . فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعاء تلك المربطة فى بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معتجراً بعمامة من إستبرق ، على بقلة عليها قطيفة ديباج ، فقال : أوضحت السلاح يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : لكن الملاكمة لم تضع أسلحتها ، وهذا الآن رجوعى من طلب القوم . ثم قال : إن الله يأمرك أن تهض إلى بنى قريظة . فنهض رسول الله ﷺ من فور ، وأمر الناس بالسير إلى بنى قريظة ، وكانت على أميال من المدينة ، وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال : « لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة » . فسار الناس ، فأدركتهم الصلاة فى الطريق ، فصلى بعضهم فى الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير ، وقال آخرون : لا تصلوها إلا فى بنى قريظة . فلم يمت واحداً من الفريقين . وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى الراية لعملى بن أبى طالب . ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصروهم خمساً وعشرين

(١) المسند (٤/ ٢٦٢) ، والبخارى (٩- ٤١٠) .

ليلة ، فلما طال عليهم الحال ، نزلوا على حكم سعد بن معاذ - سيد الأوس - لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية ، واعتقدوا أنه يحسن إليهم فى ذلك ، كما فعل عبد الله بن أبى ابن سلول فى مواليه بنى قينقاع ، حين استنطقهم من رسول الله ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى بنى أؤنك ، ولم يعلموا أن سعداً ، رضى الله عنه ، كان قد أصابه سهم فى أكله أيام الخندق ، فكواه رسول الله ﷺ فى أكله ، وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب . وقال سعد فيما دعا به : اللهم ، إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقيت لها . وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فافجرها ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة . فاستجاب الله دعاءه ، وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطؤوا له عليه ، جعل الأوس يلوذون به ويقولون : يا سعد ، إنهم مواليك ، فأحسن فيهم . ويرفقونه عليهم ويعطفونه ، وهو ساكت لا يرد عليهم . فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله : « قوموا إلى سيدكم » . فقام إليه المسلمون ، فانزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له فى محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم . فلما جلس قال له رسول الله ﷺ : « إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك ، فأحكم فيهم بما شئت » . قال : وحكمى نافذ عليهم ؟ قال : « نعم » . قال : وعلى من فى هذه الخيمة ؟ قال : « نعم » . قال : وعلى من هاهنا . وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله ﷺ - وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ - إجلالاً وإكراماً وإعظاماً - فقال له رسول الله ﷺ : « نعم » . فقال : إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، ونسئ ذريتهم وأمورهم . فقال له رسول الله ﷺ : « لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » (١) ، وفى رواية : « لقد حكمت بحكم الملك » . ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فحُذت فى الأرض ، وجرى بهم مكثفين ، ففصر أعناقهم ، وكانوا ما بين السبعمئة إلى الثمانمئة ، وسبى من لم يثبت منهم مع النساء وأمورهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ ﴾ أى : عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : بنى قريظة من اليهود ، من بعض أسباط بنى إسرائيل ، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديماً ، طمناً فى اتباع النبی الامی الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة : ٨٩] ، فملهم لمة الله .

وقوله : ﴿ مِنْ صَيَّاصِهِمْ ﴾ يعنى : حصونهم . كذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، وقادة ، والسدى ، وغيرهم ، ومنه سميت صياصى البقر ، وهى قرونها ؛ لأنها أعلى شيء فيها ﴿ وَقَدْ فِ قُلُوبِهِمُ الرِّيبُ ﴾ وهو الخوف ، لأنهم كانوا مالوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ ، فآخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوا فى الدنيا ، فانعكس عليهم الحال ، ولهذا قال تعالى :

(١) البخارى (٤٣- ٣) .

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمٍ يَكُونُ فِيهِ أَصْحَابُ الْأَسْوَاقِ هُمْ الصَّاعِقُونَ﴾ ، فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصاغر والنساء . روى الإمام أحمد عن عطية القرظي قال : عُرضت على النبي ﷺ يوم قريظة فشكوا في ، فأمر بي النبي ﷺ أن ينظروا : هل أنبت بعد ؟ فنظروا فلم يجدوني أنبت ، فخلى عنى وأخفى بالسبي . وكذا رواه أهل السنن . وقال الترمذى : حسن صحيح (١) . ورواه النسائي نحوه (٢) .

وقوله : ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنْهُمْ وَأَوْثَرْهُمْ وَأْمُرْهُمْ﴾ : أى : جعلها لكم من قتلهم لهم ﴿وَأَوْثَرَهُمْ﴾

نظروها : قيل : خير . وقيل : مكة . فارس والروم . وقال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مراداً . ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ روى الإمام أحمد عن علقمة بن وقاص قال : أخبرتنى عائشة قالت : خرجت يوم الخندق أتقوا الناس ، فسمعت وفيد الأرض روائى ، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنه ، قالت : فجلست إلى الأرض ، فمر سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه ، فانا أتخوف على أطراف سعد ، قالت : وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم ، فمر وهو يرتجز ويقول :

لَيْتَ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهَيْبَتَا حَكَمَ مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ

قلت : فقصت فاقصمت حقيقة ، فإذا فيها نفر من المسلمين ، وإذا فيها عمر بن الخطاب ، وفهم رجل عليه تسبئة له - تنعى المغفر - فقال عمر : ما جاء بك ؟ لعمري والله إنك لجريرة ، وما يؤمك أن يكون بلاء أو يكون تحوز . قالت : فمازال يلومنى حتى تميت أن الأرض انشقت بي ساعتئذ ، فدخلت فيها ، فرفع الرجل التسبئة عن وجهه ، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال : يا عمر ، ويحك ، إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى ؟ قالت : ويومى سعداً رجل من قريش ، يقال له : ابن العروة بسهم ، وقال له : خذها وأنا ابن العروة فاصاب أكحلها فقتله ، فدعا الله سعد فقال : اللهم ، لا تمتنى حتى تُفَرِّعْنِي من قريظة . قالت : وكانوا حلفاءه ومواليه فى الجاهلية ، قالت : فرقا كلمه ، وبعت الله الريح على المشركين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً . فلحق أبو سفيان ومن معه بهامة ، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فتنصنوا فى صياصبيهم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر ببقية من آدم فضربت على سعد فى المسجد ، قالت : فجاءه جبريل ، عليه السلام ، وإن على ثيابه لثقب الغبار ، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ لا ، والله ما وضعت السلاح بحد السلاح ، أخرج إلى بنى قريظة فقاتلهم . قالت : فلبس رسول الله ، لامته ، وأذن فى الناس بالرحيل أن يخرجوا ، فخرج رسول الله ﷺ فمر على بنى غنم وهم جيران المسجد حوله فقال : ومن مر بكم ؟ قالوا : مر بنا دحية الكلبي - وكان دحية الكلبي تشبه لحينه ، وسنه ووجهه جبريل ، عليه الصلاة والسلام ، فاتاهم رسول الله ﷺ

(١) المسند (٥/٣١١) ، وأبو داود (٤٤٠٤) ، والترمذى (١٥٨٤) ، والنسائي (٤٩٨١) ، وابن ماجه (٢٥٤٢) وصححه الألبانى .

(٢) النسائي فى الكبرى (٨٦١٩) .

فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله ﷺ . فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر ، فأشار إليهم أنه الذبيح . قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ [فقال رسول الله ﷺ : « انزلوا على حكم سعد بن معاذ » . فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ (١) فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمل عليه ، وحُفَّ به قومه ، فقالوا : يا أبا عمرو ، حلفاؤك ومواليك وأهل الكفاية ، ومن قد علمت ، قالت : ولا يرجع إليهم شيئاً ، ولا يلتفت إليهم ، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال : قد آن لى ألا أبالي فى الله لومة لائم . قال : قال أبو سعيد : فلما طلع قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فانزلوه » . فقال عمر : سيدنا الله . قال : « انزلوه » . فانزلوه ، قال رسول الله ﷺ : « احكم فيهم » . قال سعد : فأتى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتقسم أموالهم ، فقال رسول الله : « لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله » . ثم دعا سعد فقال : اللهم ، إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئاً ، فأبقني لها . وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم ، فأقبضنى إليك . قال : فانفجر كلمه ، وكان قد برئ منه إلا مثل الخرص ، ورجع إلى قبه التى ضرب عليه رسول الله .

قالت عائشة : فَخَصَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ ، وعمر : قالت : فوالذى نفس محمد بيده ، إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر ، وأنا فى حجرتى . وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ . قال علقمة : فقلت : أى أمه ، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع ؟ قالت : كانت عينه لا تدمع على أحد ، ولكنه كان إذا وجد فلاناً هو أخذ بلحيته . وقد أخرج البخارى ومسلم عن عائشة نحوه من هذا ، ولكنه أخصر منه ، وفيه دعاء سعد ، رضى الله عنه (٢) .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَهْلِ الْكِتَابِ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَرِيتُهَا مَتَاعًا لَّيْسَ بِكَ اللَّهُ أَهْدَ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١)

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخبر نساؤه بين أن يفارقهن ، فيذهبن إلى غيره عن يحصلن لهن عنده الحياة الدنيا وزيتهن ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله فى ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن ، رضى الله عنهن وأرضاهن ، الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

روى البخارى عن عائشة ، زوج النبي ﷺ : أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخبر أزواجه ، فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال : « إنى ذاكر لك أمراً ، فلا عليك أن تستعجلي

(١) ما بين المعقوفين ليس فى المخطوطة ، وأثبتناه من المطبوعة والمسند .

(٢) المسند (٦/١٤١) ، والبخارى (٤١١٧) ، ومسلم (١٧٦٩/٦٥) .

يَسَاءَ النَّبِيِّ مِنْ بَاطِنٍ يَسْكُنُ فِي دُجَانِهِ مُبِينٌ يُضَعِّفُ لَهَا الْمَدَادُ الضَّعِيفِينَ
وَكَلَّكَ عَلَى اللَّهِ يُبِيرُكَ ﴿٣٤﴾ وَمَنْ يَنْتَهِ يَنْتَهِ يَنْتَهِ لِلَّهِ يَوْمَئِذٍ رُسُولُهُ وَتَسْمَلُ مَسْلِكًا تَنْتَهِهَا
أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَكُمْ رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣٥﴾

يقول تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ ، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، واستقر
أمرهن تحت رسول الله ﷺ أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء، بأن من بات
منهن بفاحشة مبينة - قال ابن عباس: وهي الشهور وسوء الخلق. وعلى كل تقدير فهو شرط ،
والشرط لا يقتضي الوقوع كقولته تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَغْفِرَ لَكَ لِحَبْرَةٍ ﴾
عَنْكَ ﴿ [الزمر : ٦٥] ، وكقولته : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الامام : ٨٨] ، ﴿ قُلْ ﴾
إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿ [الزخرف : ٨١] ، ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا ﴾
يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿ [الزمر : ٤٤] ، فلما كانت محلاتهن رفيعة ، ناسب أن يجعل
الذنب لو وقع منهن مغفلاً ، صيانة لجنايهن وحجابهن الرفيع ؛ ولهذا قال : ﴿ مَنْ بَاتَ مَيْكُنَ ﴾
بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴿ قال زيد بن أسلم: في الدنيا والآخرة ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ ﴾
يُسِيرًا ﴿ أى : سهلاً هيناً . ثم ذكر عذله وفضله في قوله : ﴿ وَمَنْ يَنْتَهِ يَنْتَهِ لِلَّهِ رُسُولُهُ ﴾ أى :
يطع الله ورسوله ويستجيب ﴿ تَوَاتُهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ أى : في الجنة ، فإنهن في
منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين ، فوق منازل جميع الخلائق ، في الوسيلة التي هي أقرب
منازل الجنة إلى العرش .

يَسَاءَ النَّبِيِّ لَسَأَى كَأَكْثَرِ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتَهُ فَلَا تَخْضَعَنَّ بِالْقَوْلِ فَتُلَقِّمَ
الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٦﴾ وَقَدْ فِي يَسْؤِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ
الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقْنِ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَالْمَعْنَى اللَّهُ وَرُسُلُهُ إِنَّكَ يَرْيَا اللَّهُ
لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسُ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٧﴾ وَأَذْكُرْكَ مَا يُشْكَلُ
فِي يَدَيْكَ مِنْ بَاطِنِ اللَّهِ وَالْحَكِيمُ إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ لَظِلْمًا خَبِيرًا ﴿٣٨﴾

هذه آداب أمر الله بها نساء النبي ﷺ ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك ، فقال مخاطباً
لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقن الله عز وجل كما أمرهن ، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ،
ولا يلحظن في الفضيلة والمنزلة ، ثم قال : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ قال السدي وغيره : يعنى
بذلك : تزيين الكلام إذا خاطبن الرجال ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيُطَهِّرَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أى : دغل
﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قال ابن زيد : قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير. ومعنى هذا : أنها
تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أى : لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.
وقوله : ﴿ وَتَوَنَّنَّ فِي يَسْؤِكُنَّ ﴾ أى : الزمن يبتكن فلا تخرجن لغير حاجة . ومن الحوائج

حتى تستامري أبويك » ، وقد علم أن أبوى لم يكونا يامراني بفرقه . قالت : ثم قال : « وإن
الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُؤْثِرَكُمْ ﴾ » إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففى أى هذا استامر أبوى ؟
فأبى أريد الله ورسوله والدار الآخرة (١) . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قالت
عائشة : أنزلت آية التخيير فبدأ بى أول امرأة من نسائه ، فقال : « إبنى ذاكر لك أمراً ، فلا
عليك الا تعجلى حتى تستامري أبويك » . قالت : قد علم أن أبوى لم يكونا يامراني بفرقه .
قالت : ثم قال : « إن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُؤْثِرَكُمْ ﴾ » الآيتين . قالت عائشة : فقلت :
أففى هذا استامر أبوى ؟ فأبى أريد الله ورسوله والدار الآخرة . ثم خير نساءه كلهن ، فقلن مثل
ما قالت عائشة ، رضى الله عنهن . وأخرجه البخارى ومسلم مثله (٢) . وروى الإمام أحمد عن
عائشة قالت : خيرنا رسول الله ﷺ فاختارنا ، فلم يعدنا علينا شيئاً . أخرجه (٣) . وروى
الإمام أحمد عن جابر قال : أقبل أبو بكر ، يستأذن على رسول الله ﷺ والناس يباهيه جلوس ،
والنبي ﷺ جالس : فلم يؤذن له . ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له . ثم أذن لأبى بكر
وعمر فدخلوا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه ، وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمن النبي ﷺ
لعله يضحك ، فقال عمر : يا رسول الله ، لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سالتنى النفقة أنثاً ،
فوجأت عنقها . فضحك النبي ﷺ حتى بدا نأجه وقال : « من حولى يسألنى النفقة » . فقام
أبو بكر ، رضى الله عنه ، إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر ، رضى الله عنه ، إلى حفصة ،
كلاهما يقولان : تسالان النبي ﷺ ما ليس عنده . فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه : والله
لا تسال رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده . قال : وأنزل الله ، عز وجل ، الحيار ، فبدأ
بمعاينة فقال : « إبنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستامري أبويك » . قالت :
وما هو ؟ قال : فلا عليها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُؤْثِرَكُمْ ﴾ الآية ، قالت عائشة ، رضى الله عنها :
أففىك استامر أبوى ؟ بل اختار الله ورسوله ، وأسالك الا تذكر لامرأة من نساك ما اخترت .
فقال : « إن الله تعالى لم يبعثى معنفاً ، ولكن بعثى معلماً ميسراً » ، لا تسالنى امرأة منهن
عما اخترت الا أخبرتنيها » . انفرد بإخراجه مسلم (٤) .

وقد اختلف العلماء في جواز تزويج غيره لهن لو طلقن ، على قولين ، وأصحهما نعم
لو وقع ، ليحصل المقصود من السراح ، والله أعلم . قال عكرمة : وكان تحته يومئذ تسع نسوة ،
خمس من قریش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وكانت تحته ﷺ
صفية بنت حنى النخيرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الاسدية ،
وجويرة بنت الحارث المصطلقية ، رضى الله عنهن وأرضاهن .

(١) البخارى (٤٧٨٥) ، ومسلم (٢٢/١٤٧٥) .

(٢) المسند (٤٥/٦) ، والبخارى (٥٢٦٢) ، ومسلم (٢٤/١٤٧٧) .

(٣) المسند (٣٢٨/٣) ، ومسلم (٢٩/١٤٧٨) .

(٤) البخارى (٤٧٨٦) ، ومسلم (٢٢/١٤٧٥) .

والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به». ففُتَّ على كتاب الله ورعِبَ فيه، ثم قال: «وأهل بيته، أَذْكَرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكَرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، ثَلَاثًا. فَقَالَ لَهُ حَصْبَنُ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْد؟ أَلَيْسَ نَسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نَسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مِنْ حَرَمِ الصَّدَقَةِ بَعْدَهُ. قَالَ: وَمَنْ هُم؟ قَالَ هُمْ أَكْ عَلَى، وَأَكْ عَقِيلٌ، وَأَكْ جَعْفَرٌ، وَأَكْ عِيَاسٌ. قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حَرَمُ الصَّدَقَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ. (١)

ثم الذي لا يشك فيه من تدبير القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فإن سياق الكلام معهن؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَإِذْ تَوْكَنُ مَا يَتْلُو فِي يَوْمِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: اعلمن بما يتزلزله الله على رسوله في بيوتكن من الكتاب والسنة. قاله قتادة وغير واحد. واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي يتزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم يتزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه. قال بعض العلماء، رحمه الله: لأنه لم يتزوج بكراً سواها، ولم يتم معها رجل في فراشها سواه، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه الرتبة العلية. ولكن إذا كان أدواجه من أهل بيته، ففراشه أحق بهذه التسمية، كما تقدم في الحديث: «وأهل بيته أحق».

وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم. فقال: «هو مسجدى هذا» (٢). فهذا من هذا القبيل؛ فإن الآية إنما نزلت في مسجد قباء. كما ورد في الأحاديث الأخرى. ولكن إذا كان ذلك أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: بلفظه بكن بلفظ هذه المنزلة، وبخبرته بكن وأنكز أهل لذلك، أعطاك ذلك وخصك بذلك.

قال ابن جرير رحمه الله: واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة؛ وهي السنة، خيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أرواحاً. وقال قتادة: ﴿وَإِذْ تَوْكَنُ مَا يَتْلُو فِي يَوْمِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ قال: يمتن عليهن بذلك. رواه ابن جرير. وقال عطية العوفي في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعني: لطيف باستخراجها، خير بموضعها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روى عن الربيع بن أنس، عن قتادة.

(١) مسلم (٣٦/٢٤٠٨).

(٢) مسلم (١١/١٣٩٨/٥١٤).

الشعرية: الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن وهن ثقلات» (١)، وفي رواية: «وبيوتهن خير لهن» (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية. وقال قتادة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ يقول: إذا خرجت من بيوتكن - وكانت لهن مشية وتكسر وتفتخ - فهن الله عن ذلك. وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ والتبرج: أنها تلقى الحمار على رأسها، ولا تشده فيأري قلائدها وقطعها وعنفها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج.

وقوله: ﴿وَأَقِمُّوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطْلُوعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة، وهي: عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين ﴿وَاطْلُوعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾: وهذا نص في دخول أرواح النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح.

فإن كان المراد أنهم كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن، ففي هذا نظر؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أهم من ذلك.

روى ابن جرير عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة، وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. ورواه مسلم (٣).

وروى مسلم في صحيحه عن يزيد بن حيان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه، وغزوت معه، ووصلت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً؛ حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: يا بن أخي، والله لقد كبرت سنّي، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدثكنم فاقبلوا، وما لا فلا تكلفوني. ثم قال: قام فبنا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى خُماً - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله، فيه الهدى

(٢) أبو داود (٥٧٧) وصحيحه الألباني.

(١) أبو داود (٥٦٥) وصحيحه الألباني.

(٣) الطبري (٥/٢٢)، ومسلم (٨١/٢/٣٦).

العصر ، فنهاه ، وقرا ابن عباس، رضى الله عنه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ إِذَا قُتِلَ وَرَسُولُهُ أَن يَرْتَدَّ وَرَسُولُهُ ﴾ .

فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء ، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا ، ولا رأى ولا قول ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُخَرِّجُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجْعَلُوا فِتْنَةً لِّسُلُوكِمْ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، ولهذا شدد في خلاف ذلك ، فقال : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ حُلًّا مَبِينًا ﴾ ، كقولته تعالى : ﴿ وَلِيُخَوِّشَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُفِثَ لَهُمْ أَوْ يُصْبِحُوا عَذَابِ آلَمٍ ﴾ [النور : ٢٣] .

﴿ وَإِذْ يَقُولُ لِلَّذِي أُنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَاتَّقِ اللَّهَ مَا اللَّهُ مَبْدِيهِ وَتَتَخَفَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لَكَ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا إِلَيْهِنَّ وُقُوتًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أنه قال لمراه زيد بن حارثة وهو الذى ﴿ أُنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أى : بالإسلام ومتابعة الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ أى : بالعتق من الرق ، وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر ، حبیباً إلى النبی ﷺ ، يقال له : الحب ، ويقال لابنه أسامة : الحب ابن الحب . عن أسامة بن زيد قال : كنت فى المسجد ، فأتانى العباس وعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنهما ، فقالا : يا أسامة ، استأذنا لنا على رسول الله ﷺ . قال : فأتيت رسول الله ﷺ فأنخبرته ، فقلت : على والعباس يستأذنان ؟ فقال : أتدري ما حاجتهما ؟ فقلت : لا يا رسول الله . فقال : « لكنى أدري » ، قال : فأذن لهما . قال : يا رسول الله ، جئناك لتخبرنا : أى أهلك أحب إليك ؟ فقال : « أحب أهلى إلى فاطمة بنت محمد » ، قال : يا رسول الله ، ما تسألك عن فاطمة . قال : « فأسامة بن زيد بن حارثة ، الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه » (١) .

وكان رسول الله ﷺ قد تزوجه بابتة عمته زينب بنت جحش الأسدية - وأما أميمة بنت عبد المطلب - وأصدقها عشرة دنانير ، وستين درهماً ، وخماراً ، وملحقةً ، ودرعاً ، وخمسين مئلاً من طعام ، وعشرة أمداد من تمر ، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ، ثم وقع بينهما فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له : « أمسك عليك زوجك ، واتق الله » . قال الله تعالى : ﴿ وَتَعَفَى لِيَ تَفْصِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وقد روى البخارى أيضاً بعضه مختصراً عن أنس بن مالك قال : إن هذه الآية : ﴿ وَتَعَفَى لِيَ تَفْصِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ نزلت فى شأن زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة ، رضى الله عنهما (٢) .

(١) الترمذى (٣٨١٩) بنحوه ، وقال : « حديث حسن صحيح » .
(٢) البخارى (٤٧٨٧) .

وتقالا : إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده . قال : فنزل القرآن : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قُتِلَ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ إلى آخر الآية .

وروى الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد - يعنى : ابن سلمة - عن ثابت ، عن كنانة بن نعيم العدوى ، عن أبى برة الأسلمى أن جليسيا كان أمراً يدخل على النساء يمر بهن ولاعهن ، فقلت لامراتى : لا يدخلن اليوم عليكم جليبيب فإنه إن دخل عليكم لافعلن ولافعلن . قال : وكانت الانصار إذا كان لاحدهم أم لم يزوجه حتى يعلم : هل لنسئ الله ﷺ فيها حاجة أم لا . فقال رسول الله ﷺ لرجل من الانصار : « زوجنى ابتك » . قال : نعم ، وكرامة يا رسول الله ، ونعمة عين . فقال : « إني لست أريد لها لنفسى » . قال : فلمن يا رسول الله ؟ قال : « لجليبيب » .

فقال : يا رسول الله ، أشاور أمها . فأتى أمها فقال : رسول الله ﷺ يخطب ابتك ؟ فقلت نعم ونعمة عين . فقال : إنه ليس يخطبها لنفسه ، إنما يخطبها لجليبيب . ففالت : أجليبيب إنه ؟ أجليبيب إنه ؟ لا لعمرك لا تزوجه . فلما أراد أن يقوم ليأتى رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها ، قالت الجارية : من خطبى إليكم ؟ فأنخبرتها أمها . قالت : أتودون على رسول الله ﷺ أمره ؟ أفدعوني إليه ، فإنه لن يضعنى . فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : شئتك بها . فزوجها جليسيا . قال : فخرج رسول الله ﷺ فى غزاة له ، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : نفقد فلانا ونفقد فلانا . قال : « انظروا هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : لا . قال : « لكنى أفقد جليسيا » . قال : « فاطلبوه فى القتلى » . فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فقالوا : يا رسول الله ، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه ، فقال : « قتل سبعة وقتلوه ، هذا منى وأنا منه » . مرتين أو ثلاثا ، ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفره ، ما له سرير إلا ساعد النبی ﷺ . ثم وضعه فى قبره ، ولم يذكر أنه غسله ، رضى الله عنه . قال ثابت : فما كان فى الانصار أنهم أنفق منها . وحديث إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة ثابتاً : هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ ؟ فقال : « اللهم ، صب عليها الخير صبا ، ولا تجعل عيشها كذاً » . كذا قال ، فما كان فى الانصار أنهم أنفق منها . هكذا أورده الإمام أحمد بطوله ، وأخرج منه مسلم والنسائى فى الفضائل قصة قتله (١) .

وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى « الاستيعاب » أن الجارية لما قالت فى خدارها : أتودون على رسول الله ﷺ أمره ؟ قلت هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قُتِلَ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخَبِيرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (٢) . عن طاوس قال : إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد

(١) المسند (٤٢٢/٤) ، ومسلم (٢٤٨٢/١٤٥) ، والنسائى فى الكبرى (٨٢٤٦) .
(٢) الاستيعاب (٢٥٩/١) .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (١٦)

يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أى : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التى طلقها دعيه زيد بن حارثة .

وقوله تعالى : ﴿ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : هذا حكم الله فى الانبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشئ وعليهم فى ذلك حرج ، وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصاً فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه ، الذى كان قد تبناه ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ أى : وكان أمره الذى يقدره كاتباً لا محالة ، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا سِوَاهُ فَلَا تَنْهَمُهُمْ سَطْوَةٌ أَحَدٍ عَنْ إِبْلَاجِ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾

عبدج تبارك وتعالى ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ أى : إلى خلقه ويؤدونها بامانتها ﴿ وَيَخْشَوْنَ ﴾ أى : يخافونه ولا يخافون أحداً سواه فلا تمنهم سطوة أحد عن إبلاج رسالات الله ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أى : وكفى بالله ناصراً ومعيناً . وسيد الناس فى هذا المقام - بل وكفى كل مقام - محمد رسول الله ﷺ ؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشرق والمغرب ، إلى جميع أنواع بنى آدم ، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وأما هو ، صلوات الله عليه ، فإنه بعث إلى جميع الخلق عزهم وعصمهم ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ خَرِيبًا ﴾ [الاعراف : ١٥٨] ، ثم ورت مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه ، بلما عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، فى ليله ونهاره ، وحضره وسفره ، وسره وعلايته ، فوضى الله عنهم وأرضاهم . ثم ورت كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فينورهم يقتدى المهتدون ، وعلى منهمهم يسلك الموفقون . فسال الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ نهى تعالى أن يقال بعد هذا : ﴿ زيد بن محمد ﴾ أى : لم يكن أبه وإن كان قد تبناه ، فإنه ، صلوات الله عليه وسلامه ، لم يمش له ولد ذكر حتى يبلغ الحلم ؛ فإنه ولد له القاسم ، والطيب ، والطاهر ، من خديجة فماتوا صغارا ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضا رضيها ، وكان له من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، رضى الله عنهم أجمعين ، فمات فى حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به ، صلوات الله وسلامه عليه ، ثم ماتت بعده لسنة أشهر .

وروى ابن جرير عن عائشة ، أنها قالت : لو كتم محمد ﷺ شيئا مما أوحى إليه من كتاب الله ، لكتم : ﴿ وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَعْلَى أَنْ تُخْشَاهُ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَدُهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا ﴾ : الوطر : هو الحاجة والأرب ، أى : لا فرغ منها ، وفارقها ، زوّجناها ، وكان الذى ولى تزويجها منه هو الله ، عز وجل ، بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر . وروى الإمام أحمد عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « اذهب فاذكروها على » . فانطلق حتى أتاها وهى تحمّر عجبها ، قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى - حتى ما أستطيع أن أنظر إليها - أن رسول الله ﷺ ذكرها ، فوليتها طهورى ونكصت على عقمى ، وقلت : يا زينب ، أبشرى ، أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصائمة شيئا حتى أؤامر دى ، عز وجل . فقامت إلى مسجدنا ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن . ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ اطعنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته ففعل يتبع حُجْر نساءه يسلم عليهم ، ويقولن : يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ فما أدرى أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر . قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه ، فالتقى الستر بينى وبينه ، ونزل الحجاب ، ووعظ القوم بما وعظوا به : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ الآية . ورواه مسلم والنسائى (٢) .

وقد روى البخارى عن أنس بن مالك ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ فتقول : زوجهن أهالكن وزوجهن الله من فوق سبع سموات (٣) .

وقوله : ﴿ لَكُنِي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أى : إنما أبعثنا لك تزويجها ولعلنا ذلك ؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج مطلقات الأعدياء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة ، فكان يقال له : ﴿ زيد بن محمد ﴾ ، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ زاد ذلك بياناً وتأكيذاً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة ، ولهذا قال فى آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ليحترز من الابن الدعى ؛ فإن ذلك كان كبيرا فيهم .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أى : وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره تعالى وحشّه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب فى علم الله ستصير من أزواج النبى ﷺ .

(١) ابن جرير فى التفسير (١١/٢٢) .

(٢) المسند (٣/١٩٥) ، ومسلم (٨٩/١٤٢٨) ، والنسائى (٣٢٥٢) .

(٣) البخارى (٧٤٢٠) .

الباردة ، ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان ، لهنما الله . وكذلك كل مدح لذلك إلى يوم القيامة حتى يخشوا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها . وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه ، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرؤن بمعروف ولا ينهؤن عن منكر إلا على سبيل الاتحاق ، أو لا لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون في غاية الإفاك والفجور في أقوالهم وأفعالهم ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أَنْبَكُمْ عَلَىٰ مِن تَبَوَّءَ الشَّيَاطِينُ تَبَوَّءَ عَلَىٰ كُلِّ فَأْدَانِيْمٍ ﴾ [النمر: ٢٢١ ، ٢٢٢] . وهذا بخلاف الأنبياء ، عليهم السلام ، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرؤن به وينهؤن عنه ، مع ما يؤيدون به من الحوارق للمعادات ، والادلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصولات الله وسلامه عليهم دائما مستمرا ما دامت الأرض والسموات .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾ وَسَيُجَنَّبُكُمْ وَأَصِيلًا ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَتِيمًا مِّنَ الْغُلَامَةِ إِلَى الْبُتُوَّةِ كَرِيمًا ﴿٣﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بكثرة ذكركم لربهم تعالى ، المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن ، لا لهم في ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « ذكر الله ، عز وجل » . وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه (١) .

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن قيس قال : سمعت عبد الله بن بسر يقول : جاء أمريان إلى رسول الله ﷺ ، فقال أحدهما : يا رسول الله ، أتى الناس خيرا ؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » . وقال الآخر : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فممنى بامر أتشبه به . قال : « لا يزال لسانك رطبا بذكر الله » . وروى الترمذى وابن ماجه الفصل الثانى ، وقال الترمذى : حسن غريب (٢) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله فيه ، إلا رآوه حسرة يوم القيامة » (٣) .

(١) المسند (١٩٥/٥) ، والترمذى (٣٣٧٧) ، وابن ماجه (٣٧٩٠) وصححه الألبانى .
(٢) المسند (١٩٠/٤) ، والترمذى (٣٣٧٥) ، وابن ماجه (٣٧٩٣) ، وصححه الألبانى .
(٣) المسند (٢٢٤/٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨٣/١٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

وقوله : ﴿ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ كتفوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الانعام : ١٢٤] فهذه الآية نص في أنه لا نبى بعده ، وإذا كان لا نبى بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والآخرى ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبى ، ولا ينكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة . روى الإمام أحمد عن أبى بن كعب ، عن النبى ﷺ قال : « مثلى فى النبیین كمثل رجل بنى دارا فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع كبة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنیان ويعجبون منه ، ويقولون : لو لم موضع هذه الكبة ! فانا فى النبیین موضع تلك الكبة » .

ورواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح (١) . وروى أبو داود الطيالسى عن عبد الله [بن مسعود] قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع كبة ، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه الكبة ! فانا موضع الكبة » ، ختم بنى الأنبياء ، عليهم السلام . ورواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وقال الترمذى : صحيح غريب من هذا الوجه (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل النبیین من قبلى كمثل رجل بنى دارا فاتمها إلا كبة واحدة ، فجمعت أنا فاتممت تلك الكبة » . انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش ، به (٣) . وروى الإمام مسلم عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتِّ أَضْعَافٍ جَمَاعَ الْكَلَمِ وَنُصِّرْتُ بِالرَّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهْوَرًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلَتْ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ » . ورواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (٤) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى دارا فاتمها إلا موضع كبة واحدة ، فجمعت أنا فاتممت تلك الكبة » . ورواه مسلم (٥) .

والأحاديث فى هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ ، إليهم ، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له . وقد أخبر تعالى فى كتابه ، ورسوله فى السنة المتواترة عنه : أنه لا نبى بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب آفاك ، دجال ضال ، مضل ، ولو تخرق وشميد ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والتبرجيات ، فكلها محال وضلال عند أولى الأبواب ، كما أجرى الله ، سبحانه وتعالى ، على يد الأسود العنسى باليمن ، ومسلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة والأقوال

(١) المسند (١٣٦/٥) ، والترمذى (٣٦١٣) .
(٢) أبو داود فى مسنده (١٧٨٥) ، والبخارى (٣٥٣٤) ، ومسلم (٢٣/٢٧٨٧) ، والترمذى (٢٨٦٢) .
(٣) المسند (٩/٣) ، ومسلم (٩/٢٢٨٦) .
(٤) مسلم (٥/٥٢٣) ، والترمذى (١٥٥٣) ، وابن ماجه (٥٦٧) .
(٥) انظر هامش (٢) بالصفحة .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ : إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، ثم عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حدا ينتهي إليه ، ولم يعذر أحدا في تركه ، إلا مغلوبا على تركه ، فقال : ﴿ أَذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٣] ، بالليل والنهار ، في البر والبحر ، وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر والعلائية، وعلى كل حال، وقال : ﴿ وَسُجُودَهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته .

والاحاديث والآيات والآثار في الحث على ذكر الله كثيرة جدا ، وفي هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من ذلك . وقد صنف الناس في الأذكار المتعلقة بآداء الليل والنهار كالنسائي والمعمرى وغيرهما ، ومن أحسن الكتب المؤلفة في ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيى الدين النورى .

وقوله : ﴿ وَسُجُودَهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى : عند الصباح والمساء ، كقوله : ﴿ فَسَبِّحْهُنَّ اللَّهُ حِينَ تَسْمُونَ وَحِينَ يُسَبِّحُونَ . وَلَهُ الْعِزْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَحِينَ يُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : ١٧ ، ١٨] .

وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ : هذا تهيج إلى الذكر ، أى : إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم ، كقوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ واشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا ﴾ [البقرة : ١٥١ ، ١٥٢] . وقال النبي ﷺ : « يقول الله : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » (١) .

والصلاة من الله ثناءه على العبد عند الملائكة ، حكاية البخارى عن أبى العالية . ورواه أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عنه . وقال غيره : الصلاة من الله : الرحمة . وقد يقال : لا منافاة بين القولين والله أعلم .

وأما الصلاة من الملائكة ، فيمضى الدعاء للناس والاستغفار ، كقوله : ﴿ الَّذِينَ يَخْضَعُونَ الْعَرْشَ مِنْ حَوْلِهِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ الآية [غافر : ٧ - ٩] .

وقوله : ﴿ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى : سبب رحمته بكم وثناؤه عليكم ، ودعاه ملائكته لكم ، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين . ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا : فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم ، ويصّرهم الطريق الذى ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشباههم من الطغام . وأما رحمته بهم فى الآخرة : فأنهم من الفرع الأكبر ، وأمر ملائكته بتلقونهم

(١) البخارى (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

بالشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار ، وما ذاك إلا لمحبة لهم ورأفته بهم . روى الإمام أحمد عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : مر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه وصى فى الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ ، فأقبلت تسعى وتقول : ابنى ، ابنى ، وسعت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله ، ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار . قال فحفظهم رسول الله ﷺ وقال : « ولا الله ، لا يلقى حبيبه فى النار » (١) . إسناده على شرط الصحيحين ، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة ، ولكن فى صحيح الإمام البخارى ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها ، فالتصقته إلى صدرها ، وأرضعته فقال : « أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ » قالوا : لا . قال : « فوالله ، لله أرحم بعباده من هذه بولدها » (٢) .

وقوله : ﴿ تَجْعَلُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوُكَ سَلَامٌ ﴾ : الظاهر أن المراد - والله أعلم - ﴿ تَجْعَلُهُمْ ﴾ أى : من الله تعالى يوم يلقونه ﴿ سَلَامٌ ﴾ أى : يوم يسلم عليهم كما قال تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨] . وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى بعضهم بعضا بالسلام ، يوم يلقون الله فى الدار الآخرة . واختاره ابن جرير . قلت : وقد يستدل بقوله تعالى : ﴿ دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَجْعَلُ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَهُمْ أَن الْعَبْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ يعنى : الجنة وما فيها من المآكل والمشارب ، والملابس والمسكن ، والمناجى والملاذ والمناظر وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَتَابَعُهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١٥) وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّشِيدًا (١٦) وَيُنَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ يَأْنُ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَتْحًا كَبِيرًا (١٧) وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٨)

روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة . قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وجرى للأمتين ، أنت عدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السية بالسية ، ولكن يقفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عميا ، وأذنان صما ، وقلوبا غلفا . وقد رواه البخارى (٣) .

وقوله : ﴿ شَهِيدًا ﴾ أى : لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره ، وعلى الناس بأعمالهم يوم

(١) السند (١٠٤/٣) .

(٢) البخارى (٥٩٩٩) .

(٣) السند (٦٦٢٢) ، والبخارى (٢١٢٥) ، (٤٨٣٨) .

القيامة، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء : ٤١] .

وقوله عز وجل : ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أى : بشيرًا للمؤمنين بجزيل الثواب ، ونذيرًا للكافرين من وبيل العقاب .

وقوله : ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أى : داعيًا للخلق إلى عبادة ربه عن أمره لك بذلك ، ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أى : وأمرًا ظاهر فيما جئت به من الحق ، كالشمس فى إشراقها وإضاءتها ، لا يجمدها إلا معاند .

وقوله : ﴿وَلَا تَطْعَمُ الْكَاذِبِينَ وَالْمُفْلِقِينَ وَذَعِ أَذَاهُمْ﴾ أى : لا تطعمهم وتسمع منهم فى الذى يقولونه ﴿وَرِزْقِ أَذَاهُمْ﴾ ، أى : اصطحف ونجاوز عنهم ، وكل أمرهم إلى الله ، فإن فيه كفاية لهم ، ولهذا قال : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ
فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَلْيَسُوهُنَّ وَسِرُّوهُنَّ سِرًّا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة . منها : إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها ، وقد اختلفوا فى النكاح : هل هو حقيقة فى العقد وحده ، أو فى الرطب ، أو فيها ؟ على ثلاثة أقوال ، واستعمال القرآن إنما هو فى العقد والوطء بعده ، إلا فى هذه الآية فإنه استعمل فى العقد وحده ؛ لقوله : ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ . وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها .

وقوله : ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ : خرج مخرج الغالب ؛ إذ لا فرق فى الحكم بين المؤمنة والكتابية فى ذلك بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس ، وسعيد بن المسيب وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ ، فمقرب النكاح بالطلاق ، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله . وهذا مذهب الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وطائفة كثيرة من السلف والخلف .

وذهب مالك وأبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح ؛ فيما إذا قال : « إن تزوجت فلانة فهى طالق » ؛ فعندهما متى تزوجها طلقت منه . واختلفا فيما إذا قال : « كل امرأة أتزوجها فهى طالق » . فقال مالك : لا تطلق حتى يعين المرأة . وقال أبو حنيفة : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه ، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية .

عن ابن عباس قال : إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهى طالق ، قال : ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية . وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك » . رواه الإمام أحمد والترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه . وقال الترمذى :

« هذا حديث حسن » (١) .

وقوله عز وجل : ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ : هذا أمر مجمع عليه بين العلماء : أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج فى فورها من شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا التوفى عنها زوجها ، فإنها تعدت منه أربعة أشهر وعشرًا ، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضًا .

وقوله تعالى : ﴿فَلْيَسُوهُنَّ وَسِرُّوهُنَّ سِرًّا جَمِيلًا﴾ : التهمة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو التهمة الخاصة إن لم يكن قد سعى لها ، قال الله تعالى : ﴿وَأَنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَصَفِّ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . وقال : ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ فَرَضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَتَبَيَّنَ عَلَى الْمُبِيعِ قُدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْبِرِ قُدْرَةُ مَتَاعِهِ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ٢٣٦] . وفى صحيح البخارى ، عن سهل بن سعد وأبى أسيد ، أن رسول الله ﷺ تزوج أمية بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها ، فكانها كرهت ذلك ، فأمر أبى أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين زأرقين (٢) .

قال ابن عباس : إن كان سعى لها صداقا ، فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سعى لها صداقا فانتعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَعْلَلْنَا لَكَ أَرْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ الْجُوهْرُوكَ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ
رِمَا أَفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَنِزَاتِ عَمْرِكَ وَنِزَاتِ عَمْرِيكَ وَنِزَاتِ خَالِكَ وَنِزَاتِ خَالِيكَ الَّتِي
هَاجَرَ مَلَكَ وَكَثْرَةُ مُؤْمِنَةٍ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَكَ لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً
لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِنَّ فِي أَرْوَاجِهِنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُهُمْ لِيَكُونَ عَلَيْكَ حَرْجٌ وَكَذَلِكَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ رَجِيمًا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أرواجه اللاتي أعطاهن مهورهن ، وهى الأجور هاهنا . كما قاله مجاهد وغير واحد ، وقد كان مهرة لنسائه اثنتى عشرة أوقية ونشًا (٣) وهو نصف أوقية ، فالجميع خمسمائة درهم ، إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمورها عنه النجاشى أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حنن فإنه اصطفاها من سبى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية ، أدق عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها ، رضى الله عن جميعهن .

(١) اللسد (٦٧٦٩) ، والترمذى (١١٨١) ، وأبو داود (٢١٩١) ، وابن ماجه (٢٠٤٧) . وقال الشيخ أحمد شاكر :

« إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٥٢٥٦) ، (٥٢٥٧) .

(٣) فى الطبوعة : « ونشتر » وهو خطأ . وفى الصباح النير : « وانشئت » نصف الأوقية « مادة (ن ش ن) » .

وقوله : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ : أى : وأباح لك الترسى عما أخذت من الغنائم ، وقد ملك صفيه وجوهرية فأعتقتهما وتزوجتهما . وملك ربحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم ، عليه السلام ، وكانا من السراى .

وقوله : ﴿ وَبَنَاتُ عَمِّكَ وَبَنَاتُ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتُ خَالَاتِكَ خَالَاتُ الْأُمِّيِّ هَاجِرُونَ مَعَكَ ﴾ : هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فبجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والحالة ، وتحريم ما قرّضت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا يشع فظيح . وإنما قال : ﴿ وَبَنَاتُ عَمِّكَ وَبَنَاتُ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتُ خَالَاتِكَ خَالَاتُ الْأُمِّيِّ هَاجِرُونَ مَعَكَ ﴾ ، وجميع الإناث لنقصهن كقولهن : ﴿ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ [النحل : ٤٨] ، ﴿ يَخْرُجُ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] ، وله نظائر كثيرة . وقوله : ﴿ الْأُمِّيِّ هَاجِرُونَ مَعَكَ ﴾ : قال أبو رزيق وقتادة : إن المراد : من هاجر معه إلى المدينة . وفى رواية عن قتادة : ﴿ الْأُمِّيِّ هَاجِرُونَ مَعَكَ ﴾ : أى : أسلمين .

وقوله : ﴿ وَأَمْرًا مُؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْبِهَا ﴾ : أى : ويحل لك - يا أيها النبى - المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية تنال فيها شرطان ، كقولهن تعالى إخباراً عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : ٣٤] ، وكقول موسى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ يُغْفِرْ لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٤] . وقال هاهنا : ﴿ وَأَمْرًا مُؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْبِهَا ﴾ ، وقد روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدي ، أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله ، إني قد وهبت نفسي لك . فقامت قياماً طويلاً ، فقام رجلاً فقال : يا رسول الله ، وزّجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ تُصَدِّقُهَا بِهِ ؟ ﴾ فقال : ما عندي إلا إزارى هذا . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنْ أَطْعَمْتَهَا إِيَّارَكَ جَلَسْتَ لَا إِيَّارَ لَكَ ، فَالْتَمَسْ شَيْئًا ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ هَلْ مَعَكَ مِنَ التَّمَسِّ وَلَوْ خَائِثًا مِنْ حَدِيدٍ ﴾ فالتمس فلم يجد شيئاً ، فقال له النبى ﷺ : ﴿ هَلْ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ ؟ ﴾ قال : نعم ؛ سورة كذا ، وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له رسول الله ﷺ : ﴿ رُوِّجْكِهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ . أخرجاه (١) . وروى الإمام أحمد عن أسس قال : جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت : يا نبى الله ، هل لك فى حاجة ؟ فقالت ابنته : ما كان أقل حياها . فقال : ﴿ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ، رَغِبْتُ فِي النَّبِيِّ ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ نَفْسَهَا ﴾ . انفرد بإخراجه البخارى (٢) .

(١) المسند (٥/٣٣٦) ، والبخارى (٥١٣٥) ، ومسلم (١٤٢٥/٨٦) .
(٢) المسند (٣/٢٦٨) ، والبخارى (٥١٢٠) .

ربيع

وقوله : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال عكرمة : أى لا تحل الموهوبة للغير ، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً . أى : أنها إذا فوّضت المرأة نفسها إلى رجل ، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها ، ولهذا قال قتادة فى قوله : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير رضى ولا مهر إلا للنبى ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْتُمْ عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ : أى : من حصرهم فى أربع نسوة حررات وما شأوا من الإماء ، واشتراط الولى والمهر والشهود عليه ، وهم الأمة ، وقد رخصنا لك فى ذلك ، فلم نوجب عليك شيئاً منه ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

﴿ تَرْجِي مِنْ نِسَاءِكُم مِمَّنْ وَقَعْتُمْ لِيَكُنَ مِنْ نِسَاءِكُمْ وَمَنْ أَبْغَيْتُمْ مِنْهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ آدَابٌ أَنْ تَقْرَأَ آيَاتَهُمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَوْكُمْ يَمَّا أَيْبَسْتُمْ كَلَّهِنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة : أنها كانت تُعَيِّرُ النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ ، قالت : ألا تستحى المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فانزل الله ، عز وجل : ﴿ تَرْجِي مَنْ نِسَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ وَمَنْ أَبْغَيْتْ مِنْهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ، قالت : إني أرى ربك يسارع لك فى هواك (١) .

قوله : ﴿ تَرْجِي ﴾ : أى : تؤخر ﴿ مِنْ نِسَاءٍ مِنْهُنَّ ﴾ : أى : من الواهبات ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ ﴾ : أى : من شئت قبلتها ، ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فانت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك ، إن شئت عدت فيها فأريتها ، ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ أَبْغَيْتْ مِنْهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ .

وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ تَرْجِي مِنْ نِسَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ ﴾ : أى : من أزواجك ، لا حرج عليك أن تترك القسم لهن ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجمع من شئت ، وتترك من شئت . هكذا يروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم ، ومع هذا كان ، صلوات الله وسلامه عليه ، يقسم لهن ؛ ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ، وصلوات الله وسلامه عليه ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة . وروى البخارى عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية : ﴿ تَرْجِي مِنْ نِسَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ وَمَنْ أَبْغَيْتْ مِنْهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ، فقلت لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذاك إلى فائى لا أريد يا رسول الله أن أؤثر عليك أحداً (٢) . فهذا الحديث عنها يدل على عدم وجوب القسم ، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة فى الواهبات وفى النساء اللاتى عنده ، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم . وهذا الذى اختاره حسن جيد قوى ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ

(١) المسند (٦/١٥٨) ، والبخارى (٤٧٨٨) .
(٢) البخارى (٤٧٨٩) .

إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم . وقد رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي . وقال الترمذي : حسن صحيح ^(١) . وروى الترمذي عن أبي بن كعب، قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه » . قال أبي : قلت : يا رسول الله ، إنني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : « ما شئت » . قلت : الربع ؟ قال : « ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك » . قلت : النصف ؟ قال : « ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك » . قلت : فالثلاثين ؟ قال : « ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك » . قلت : أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : « إذن تكفي ههنا ، ويغفر لك ذنبك » . ثم قال : هذا حديث حسن ^(٢) .

وروى الإمام أحمد عن أبي طلحة الأنصاري قال : أصبح رسول الله ﷺ يوما طيب النفس ، يرى في وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله ، أصبحت اليوم طيب النفس ، يرى في وجهك البشر ؟ قال : « أجل ، أثنى آت من ربي ، عز وجل ، فقال : من صلى عليك من أمثك صلاة ، كتبت الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها » . هذا إسناد جيد ، ولم يخرجوه ^(٣) . وروى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث إسماعيل بن جعفر، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى عليّ واحدة ، صلى الله عليه بها عشرا » . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ^(٤) .

وروى الإمام أحمد عن الحسين [بن عليّ] ، أن رسول الله ﷺ قال : « البخيل من ذُكرت عنده ، ثم لم يصل عليّ » . وقال أبو سعيد : « فلم يصل عليّ » . ورواه الترمذي ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب صحيح ^(٥) . وروى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذُكرت عنده فلم يصل عليّ . ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبير فلم يدخله الجنة » . ثم قال : حسن غريب ^(٦) . قلت : وقد رواه البخاري في الأدب المفرد ^(٧) . وروياه من حديث محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، به . قال الترمذي : وفي الباب عن جابر وأنس .

(١) مسلم (٦٥/٤٠٥) ، وأبو داود (٩٨٠) ، والترمذي (٣٢٢٠) ، والنسائي (١٢٨٥) .

(٢) الترمذي (٢٤٥٧) ، وقال : « حسن صحيح » .

(٣) المسند (٢٩/٤) .

(٤) مسلم (٧٠/٤٠٨) ، وأبو داود (١٥٣٠) ، والترمذي (٤٨٥) ، والنسائي (١٢٩٦) .

(٥) المسند (١٧٣٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، والترمذي (٣٥٤٦) .

(٦) الترمذي (٣٥٤٥) وقال الألباني : « حسن صحيح » .

(٧) البخاري في الأدب المفرد (٢١) .

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر ، والله المستعان .

روى البخاري عن كعب بن عُجْرَةَ قال : قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » ^(١) .

وروى الإمام أحمد عن ابن أبي ليلى قال : لقيني كعب بن عُجْرَةَ فقال : ألا أهدى لك هدية ؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله ، قد علمنا - أو : عرفنا - كيف السلام عليك ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » . وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة ^(٢) .

ومعنى قولهم : « أما السلام عليك فقد عرفناه » : هو الذي في التشهد الذي كان يعلمهم إياه ، كما كان يعلمهم السورة من القرآن ، وفيه : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » .

وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري ، قال : قلنا : يا رسول الله ، هذا السلام ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ، كما صليت على آل إبراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم » . قال أبو صالح ، عن الليث : « على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم » . وأخرجه النسائي ^(٣) . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن سليم أنه قال : أخبرني أبو حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله ، كيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » . وقد أخرجه بقية الجماعة ، سوى الترمذي ^(٤) . وروى مسلم عن أبي مسعود الأنصاري - قال : أثنانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عُبَّادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تخميننا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل

(١) البخاري (٤٧٩٧) .

(٢) المسند (٢٤١/٤) ، والبخاري (٣٣٧٠) ، ومسلم (٤٧٩٧) ، ومسلم (٦٦/٤٠٦) .

(٣) البخاري (٤٧٩٨) .

(٤) المسند (٤٢٤/٥) ، والبخاري (٣٣٦٩) ، ومسلم (٦٩/٤٠٧) .

يقراً بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا في نفسه ثم يصلي على النبي ﷺ ويخلص الدعاء للجنابة ، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها ، ثم يسلم سرا في نفسه . ورواه النسائي ، عن أبي أمامة نفسه أنه قال : من السنة ، فذكره (١) . وهذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح .

ومن ذلك : في صلاة العيد : عن علقمة : أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد ، فقال لهم : إن هذا العيد قد دنا ، فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله : تبدأ فتكبر تكبيرة تفتح بها الصلاة ، وتحمد ربك وتصل على النبي ﷺ ، ثم تدعو ، وتكبر وتعمل مثل ذلك ، ثم تكبر وتعمل مثل ذلك ، ثم تكبر وتعمل مثل ذلك ، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصل على النبي ﷺ ثم تدعو وتكبر ، وتعمل مثل ذلك ، ثم تركع . فقال حذيفة وأبو موسى: صدق أبو عبد الرحمن . إسناده صحيح (٢) .

ومن ذلك : أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ روى الترمذي عن عمر بن الخطاب قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لا يصعد منه شيء حتى تصل على نبيك (٣) .

ومن أكد ذلك : دعاء القنوت لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم ، عن الحسن بن علي ، قال : علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الرزق : « اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضي عليك ، إنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت » (٤) . وزاد النسائي في سننه بعد هذا : وصلى الله على النبي محمد .

ومن ذلك : أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة ولبلة الجمعة : روى الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النسخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة على » . قالوا: يارسول الله ، وكيف تعرض صلاتنا وقد آنست ؟ -

(١) الأم (٢٣٩/١) ، والنسائي (١٩٨٩) .
(٢) مجمع الزوائد للهيثم (٢٠٨/٢) والحديث صحيحه الألباني في إرواء الغليل (٢٤٢) .
(٣) الترمذي (٤٨٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : «هذا موقوف في حكم المرفوع . قال القاضي أبو بكر بن العربي (٢/ ٢٧٣ ، ٢٧٤) : « مثل هذا إذا قاله عمر لا يكون إلا توثيقاً ، لأنه لا يدرى بنظر . وبعضه ما خرج مسلم قال النبي عليه السلام : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على » ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة ، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » . والحديث الذي أشار إليه هو في صحيح مسلم (١١٣ / ١) » .

(٤) المسند (١٧/٨) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٤٢٥) ، والترمذي (٤٦٤) ، وابن خزيمة في صحيحه (١٠٩٥) ، وابن حبان في الإحسان (٩٤١) ، والمستدرک (١٧١/٣) .

قلت : وابن عباس ، وكعب بن عجرة ، وقد ذكرت طرق هذا الحديث في أول كتاب السيام وعند قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَلْتَمِسُ عَلَيْكَ أَكْثَرُ خَلْقَهُمْ أَوْ كَلَاهُمَا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

وهذا الحديث دليل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر ، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والخليلي ، وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة في المجلس مرة واحدة ، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس ، بل تستحب . نقله الترمذي عن بعضهم ، ويتأيد بالحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترعة ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم » . تفرد به الترمذي من هذا الوجه . ورواه الإمام أحمد عن أبي هريرة ، مرفوعاً مثله . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن (١) .

وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه ، عليه السلام ، في العمر مرة واحدة ، امتثالاً لأمر الآية ، ثم هي مستحبة في كل حال ، وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة . قال : وقد حكى الطبري أن محمداً الآتي على التدب ، وادعى فيه الإجماع . قال : ولعله فيما زاد على مرة ، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة ، وما زاد على ذلك فمندوب مرغّب فيه من سنن الإسلام ، وشعار أهله . قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب على ما نبينه .

فمنه : بعد النداء للصلاة ؛ للحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على ؛ فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » . وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي (٢) . وروى الإمام أحمد عن ربيعة بن ثابت الأنصاري ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى على محمد وقال : اللهم ، أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة ، وجبت له شفاعتي » . وهذا إسناده لا بأس به ، ولم يخرجوه (٣) .

ومن ذلك : الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنابة : فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفي الثانية يصلي على النبي ﷺ ، وفي الثالثة يدعو للبيت ، وفي الرابعة يقول : اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده . روى الشافعي عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ : أن السنة في الصلاة على الجنابة أن يكبر الإمام ، ثم

(١) الترمذي (٣٣٨٠) وقال : « حسن صحيح » وصححه الألباني ، وهو في المسند (٤٥٣/٢) .

(٢) المسند (٢٥٦٨) ، ومسلم (١١٣٨٤) ، وأبو داود (٥٢٣) ، والترمذي (٣٦١٤) ، والنسائي (٦٧٨) .

(٣) المسند (١٠٨/٤) ، وقال الهيثمي في الزوائد (١٠٦٦/١) : رواه البيهقي والطبراني في الكبير والأوسط وأسانيدهم حسنة ، ولم يعزه لأحد .

وإن كان عزيزاً جليلاً؛ لأن هذا من شعار ذكر الله، عز وجل . وحصلوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ؛ ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى، ولا لجابر وامراته . وهذا مسلك حسن . وقال آخرون : لا يجوز ذلك ؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم ، فلا يقتدئ بهم في ذلك ، والله أعلم .

ثم اختلف المانعون من ذلك : هل هو من باب التحريم ، أو الكراهة التنزيهية ، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال ، حكاها الشيخ أبو زكريا النورى في كتاب الأذكار . ثم قال : والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ؛ لأنه شعار أهل البدع ، وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد فى ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة فى لسان السلف بالأنبياء ، كما أن قولنا : « عز وجل » ، مخصوص بالله تعالى ، فكما لا يقال : « محمد عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلاً ، لا يقال : « أبو بكر - أو : على - صلى الله عليه » . هذا لفظه بحروفه . قال : وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجوينى : هو فى معنى الصلاة ، فلا يستعمل فى الغائب ، ولا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : « على عليه السلام » ، وسواء فى هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به ، فيقال : سلام عليك ، أو السلام عليك أو عليكم . وهذا مجمع عليه . انتهى ما ذكره .

قلت : وقد غلب هذا فى عبارة كثير من النسخ للكتب ، أن يفرد على ، بأن يقال : « عليه السلام » ، من دون سائر الصحابة ، أو : « كرم الله وجهه » وهذا وإن كان معناه صحيحاً ، لكن ينبغى أن يسوى بين الصحابة فى ذلك ، فإن هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه ، رضى الله عنهم أجمعين .

عن ابن عباس أنه قال : لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبى ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة . وعن جعفر بن برقان قال : كتب عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله : أما بعد ، فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا فى الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبى ﷺ ، فإذا جاءك كتابى هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعائهم للمسلمين عامة ، ويدعوا ما سوى ذلك .

فرع : قال النورى : إذا صلى على النبى ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : « صلى الله عليه » فقط ، « ولا : « عليه السلام » فقط ، وهذا الذى قاله منتزع من هذه الآية الكريمة ، وهى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، فالأولى أن يقال : صلى الله عليه وسلم تسليمًا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كُنْتُمْ تُبْغُونَ فَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا
وَأَنشَأْنَا مِنَّا

يعنى : وقد بليت - قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » . ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجه (١) . وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطنى ، والنورى فى الأذكار .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلى على النبى ﷺ يوم الجمعة على المنبر فى الخطبتين ، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ؛ لأنها عبادة ، وذكر الله فيها شرط ، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة . هذا مذهب الشافعى وأحمد .

ومن ذلك : أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره ﷺ : روى أبو داود عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد يسلم على إلا رد الله على روحى ، حتى أرد عليه السلام » . تفرد به أبو داود ، وصححه النورى فى الأذكار (٢) .

مسألة : وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبى ﷺ كلما كتبه ، وقد ذكر الخطيب البغدady فى كتابه : « الجامع لأدب الراوى والسامع » ، قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : كثيراً ما يكتب اسم النبى ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة ، قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظاً .

فصل : وأما الصلاة على غير الأنبياء ، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم فى الحديث : « اللهم ، صل على محمد وآله وأرواحه وفريته » (٣) ، فهذا جائز بالإجماع ، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم :

فقال قائلون : يجوز ذلك، واحتجوا بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ ، ويقول : ﴿ وَأَوَّلَتْ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة : ١٥٧] ، ويقول تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَواتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، وبحديث عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صل عليهم » (٤) . وأتاه أبى بصدقة فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » . أخرجاه فى الصحيحين (٥) . وبحديث جابر : أن امرأته قالت : يا رسول الله ، صل على وعلى زوجى . فقال : « صلى الله عليك وعلى زوجك » (٦) .

وقال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا ، فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال : « قال أبو بكر صلى الله عليه » و« قال على صلى الله عليه » . وإن كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال : « قال محمد ، عز وجل » ،

(١) المسند (٨/٤) ، وأبو داود (١٠٤٧) ، وابن ماجه (١٦٣٦) ، وصححه الألبانى .
(٢) أبو داود (٢٠٤١) .
(٣) البخارى (٣٣٦٩) ، وسلم (٦٩/٤٠٧) .
(٤-٥) تقدم تخريجها من ٦٦ ، ٦٧ .

يقول تعالى : متهدداً ومتوعداً من آذاه ، بمخالفة أوامره وارتكاب ذواجره وإصراره على ذلك ، وإلذاء رسوله بعب أو بنقص ، عياداً بالله من ذلك . قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت في المصومين . وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله ، عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، أقطب ليله ونهاره » (١) . ومعنى هذا : أن الجاهلية كانوا يقولون : يا خيبة الدهر ، فعل بنا كذا وكذا . فيستندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ، ويسبونه ، وإنما القاعل لذلك هو الله ، عز وجل . فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيى بن أخطب . والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ، ومن آذاه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغير ما اتكسبوا ﴾ أى : ينسبون إليهم ما هم براء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿ فَقَدْ احْتَسَبُوا بِهَذَا وَإِنَّمَا بُيِّنَّا ﴾ وهذا هو البهت البين أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه ، على سبيل العيب والتقص لهم ، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين يتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد يراهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ؛ فإن الله ، عز وجل ، قد أخبر أنه قد رضى عن المهاجرين والأنصار ومدحهم ، وهؤلاء الجبهة الأغبياء يسبونهم ويتقصونهم ، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً ، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب ، يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين . وروى أبو داود عن أبي هريرة ، أنه قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : « ذكرك أخاك بما يكره » . قيل : أفرايت إن كان في أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » . وهكذا رواه الترمذى ، ثم قال : حسن صحيح (٢) .

﴿ يَأْتِيَنَّكَ أُنْثَىٰ تَلَيْسَ لَكَ وَلَدٌ ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُشْكِفُونَ وَالَّذِينَ أَتَوْا بِهَذَا مَقْصُودٍ فَمَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَفْوَ إِلَّا رَحِيمًا ﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُشْكِفُونَ وَالَّذِينَ أَتَوْا بِهَذَا مَقْصُودٍ فَمَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَفْوَ إِلَّا رَحِيمًا ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُشْكِفُونَ وَالَّذِينَ أَتَوْا بِهَذَا مَقْصُودٍ فَمَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عَفْوَ إِلَّا رَحِيمًا ﴾ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات - خاصة أزواجه وبناته

(١) البخارى (٤٨٢٦) ، وسلم (٢/٢٢٤٦) .

(٢) أبو داود (٤٨٧٤) ، والترمذى (١٩٣٤) ، وصححه الألبانى .

لشرفهن - بأن يدين عليهن من جلايبهن ؛ ليميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإمام . والجلابيب هو : الرداء فوق الحمار . قاله ابن مسعود ، وعبيدة ، وقادة ، والحسن البصرى ، وسعيد ابن جبير ، وإبراهيم النخعي ، وعطاء الخراساني ، وغير واحد . وهو بمنزلة الإزار اليوم .

قال الجمهور : الجلاب : الملحفة .

قال ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبدين عينا واحدة . وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلماني عن قول الله تعالى : ﴿ يَدِينُ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ ، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى . وقال عكرمة : تنطى ثغرة نحرها بجلابيبها تدنيه عليها . وروى ابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية : ﴿ يَدِينُ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ ، خرج نساء الأنصار كان على رؤوسهن الغريبان من السكينة ، وعليهن أكسية سود يلبسها (١) . وروى عن صفيان الثوري أنه قال : لا بأس بالنظر إلى ربة نساء أهل الدمة ، إنما ينهى عن ذلك لحرف الفتنة ؛ لا لحرمتهم ، واستندل بقوله تعالى : ﴿ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَتَىٰ أَنْ يَبْعَثَ فَلَا يُؤْذِنُ ﴾ أى : إذا فعل ذلك عرف أنهن حرائر ، لسن بإمام ولا عواهر ، قال السدى في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدِينُ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَتَىٰ أَنْ يَبْعَثَ فَلَا يُؤْذِنُ ﴾ قال : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة ، يتعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يتغنون ذلك منهن ، فإذا رآوا امرأة عليها جلباب قالوا : هذه حرة ، كفروا عنها . وإذا رآوا المرأة ليس عليها جلباب ، قالوا : هذه أمة . فوثبوا إليها . وقال مجاهد : يتجلببن فيعلم أنهن حرائر ، فلا يعرض لهن فاستق بأذى ولا ربة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى : لا سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهم علم بذلك .

ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويظنون الكفر : ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ قال عكرمة وغيره : هم الزناة هاهنا ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ يعنى : الذين يقولون : « جاء الأعداء » و « جاءت الحروب » ، وهو كذب واغتراف ، لكن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لَتُفَرِّقَنَّ بَيْنَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى : لنسلطنك عليهم . وقال قتادة ، رحمه الله : لنفرشك بهم . وقال السدى : لنمسلنك بهم ﴿ ثُمَّ لَا يَجَارُورُكَ فِيهَا ﴾ أى : فى المدينة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ حال منهم فى مدة إقامتهم فى المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ، ﴿ إِنَّمَا تَقَفُّوا ﴾ أى : وجدوا ﴿ أَحْدَادًا ﴾ لذاتهم وقتلهم ﴿ وَلَقَدْ أَقْبَلُوا ﴾ .

ثم قال : ﴿ سَنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : هذه سنته فى المنافقين إذا تمردوا على

(١) البخارى (٤٧٥٩) بنحوه .

تفانهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه ، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويظهرهم ﴿ رَأَى نَجْمًا لِسَنَةِ اللَّهِ تَهِلُّهُ ﴾ أى : رسته الله فى ذلك لا تبدل ولا تغير .

﴿ يَسْتَأْذِنُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَتْنَاهُ اللَّهُ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ (١٠)
﴿ قُلْ لِّلَّهِ لَعْنَةُ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ (١١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يُجْدُونَ فِيهَا وَلَئِيكَ لَا تُصْبِحُ
﴿ يَوْمَ تَقُفُّ أَعْيُنُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ أَلَمْ نَأْتِ اللَّهَ وَآلَهُنَّ الرُّسُلَ ﴾ (١٢) رَأَى عَائِشَةُ ضَعْفَيْنِ
﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ سَادَتًا وَكَرِهْنَا فَأَبْدَلْنَاكَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (١٣) رَبَّنَا عَائِشَةُ ضَعْفَيْنِ
﴿ مِمَّنْ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ (١٤)

يقول تعالى مخبراً لرسوله ﷺ : انه لا علم له بالساعة ، وإن سألته الناس عن ذلك ، وأرشدته أن يرد علمها إلى الله ، عز وجل ، كما قال الله تعالى فى سورة « الأعراف » ، وهى مكية وهذه مدنية ، فاستمر الحال فى رد علمها إلى الذى يقيها ، لكن أخيره أنها قريبة بقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ اقْرَبْتِ السَّاعَةَ وَانْتَقِ الْقُرَى ﴾ (١٥) ، وقال : ﴿ اقْرَبِ لِلنَّاسِ حِسَابَهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١٦) الانبياء : ٢١ ، وقال : ﴿ أَتَى اللَّهُ الْفَلَاحَ ﴾ (١٧) النمل : ١٠ . ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى : فى الدار الآخرة : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : ماكنين مستمرين ، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ، ﴿ لَا يُجْدُونَ فِيهَا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أى : وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم عما هم فيه .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ تَقُفُّ أَعْيُنُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ أى : يسحبون فى النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك ، يتسنون أن لو كانوا فى الدار الدنيا عن أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم فى حال المرحلات بقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَهْلَكْتَنِي الْدُّكْرَ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ (١٨) الفرقان : ٢٧ - ٢٩ ، وقال تعالى : ﴿ رُؤُسًا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (١٩) الحجر : ٢٧ . وهكذا أخبر عنهم فى حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول فى الدنيا ، وقالوا ربنا إِنَّا أَطَعْنَاكَ سَادَتًا وَكَرِهْنَا فَأَبْدَلْنَاكَ السَّيِّئَاتِ ﴿ أى : اتبنا السادة وهم الأمراء والكبراء من الشيعة ، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً ، وأنهم على شئء فإذا هم ليسوا على شئء ﴾ رَبَّنَا آتِنَاهُمْ مِنْ الْعَذَابِ ﴾ أى : بكفرهم ، وإغوائهم إيانا ، ﴿ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ . قرأ بعض القراء بالياء المحذرة . وقرأ آخرون بالثاء الثالثة ، وهما قريباً المعنى ، كما فى حديث عبد الله بن عمرو : أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أدمع به فى صلاتى . قال : « قل اللهم ، إني ظلمت نفسى ظلمًا كبيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ،

فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » . أخرجه فى الصحيحين (١) ، يروى « كبيراً » و« كثيراً » ، وكلاهما بمعنى صحيح . واستحب بعضهم أن يجمع الداعى بين اللفظين فى دعائه ، وفى ذلك نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة ، وهذا تارة ، كما أن القارئ مخير بين القراءتين أيهما قرأ فحَسَنَ ، وليس له الجمع بينهما ، والله أعلم .

﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَانُوا قَبْرَاهُ اللَّهِ مِمَّا قَالُوا وَلَئِنْ جَاءَهُمْ نَصْرٌ مِنْ رَبِّهِمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَعْبُدُ اللَّهَ وَمَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا أَنْهَ يُغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ (١)

روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى ، عليه السلام ، كان رجلاً حياً شقيراً ، لا يرى من جلده شئء استحياء منه ، فأداه من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يشتري هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برص وإما أذرة وإما آفة ، وإن الله ، عز وجل ، أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، عليه السلام ، فخلا يوماً وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فاخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر ، حتى انتهى إلى ملا من بنى إسرائيل ، فأخذ ثوبه فأراه عربياً أحسن ما خلق الله ، عز وجل ، وأبراه عما يقولون ، وقام الحجر ، فاخذ ثوبه فلبسه ، وطلّق بالحجر ضرباً بخصاه ، فوالله إن بالحجر لثدياً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً - قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَانُوا قَبْرَاهُ اللَّهِ مِمَّا قَالُوا وَلَئِنْ جَاءَهُمْ نَصْرٌ مِنْ رَبِّهِمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَعْبُدُ اللَّهَ وَمَا كُنَّا نَدْعُوهُ إِلَّا أَنْهَ يُغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ . وهذا الحديث من أفراد البخارى دون مسلم (٢) . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَانُوا قَبْرَاهُ اللَّهِ مِمَّا قَالُوا ﴾ قال : قال قومه له : إنك أكر . فخرج ذات يوم يغتسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، فخرجت الصخرة تشد بثيابه ، وخرج يتبعها عربياً حتى انتهت به مجالس بنى إسرائيل ، قال : فأراه ليس بأدر ، فذلك قوله : ﴿ قَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ . وروى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال : قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله . قال : فقلت : يا عدو الله ، أما لاخيرن رسول الله ﷺ بما قلت . قال : فذكر ذلك للنبى ﷺ فاحمر وجهه ، ثم قال : « رحمة الله على موسى ، لقد أودى بأكثر من هذا فصر » . أخرجه فى الصحيحين (٣) . وقوله : ﴿ وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ أى : له وجاعة وجاه عند ربه ، عز وجل . قال الحسن البصرى : كان مستجاب الدعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله ، عز وجل . وقال بعضهم : من وجاعته العظيمة عند الله أنه شفع فى أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فاجاب الله سؤاله ، وقال : ﴿ وَوَقَّعْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَهْلًا هَارُونَ نَبِيًا ﴾ [مریم : ٥٣] .

(١) البخارى (٨٣٤) ، ومسلم (٤٨/٢٧٠٠٥) .
(٢) المسند (٣٦٠٨) ، والبخارى (٣٤٠٥) ، ومسلم (١٤٠/١٠٠٦٢) .
(٣) البخارى (٣٤٠٤) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا فِرَقًا حِدِيدًا﴾ يُطِيعُ لَكُمْ أَمْرًا وَكَفَرُوا بِكُمْ وَنَفَرُوا

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يمدوه عبادة من كانه يراه ، وأن يقولوا ﴿قُولاً سَدِيداً﴾ أى : مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف . ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك ، أثناهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم ، أى : يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم فى المستقبل بلهمهم بالتوبة منها .

ثم قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ وذلك أنه يجازى نار الجحيم ، ويصير إلى النعيم القيم . قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا الله . وقال غيره : السديد : الصديق . وقال مجاهد : هو السداد . وقال الصواب . والكل حق .

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

قال العوفي ، عن ابن عباس : يعنى بالامانة : الطاعة ، التى عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم ، فلم يطقوها . فقال لآدم : إني قد عرضت الامانة على السموات والارض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت أخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جريت ، وإن أسأت عوقبت . فاخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله : ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الامانة : الفرائض ، عرضها الله على السموات والارض والجبال ، إن أدوها أثناهم . وإن ضيعوها عذبهم ، ففكروها ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيماً لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ يعنى : غرأ بامر الله . وقال ابن جرير عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ قال : عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها ، فإن أعلمت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك . قال : قلت ، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم ، حتى أصاب الخطيئة . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير وغير واحد : إن الامانة هى الفرائض . وقال آخرون : هى الطاعة . وقال أبى بن كعب : من الامانة أن المرأة أوفت على فرجها . وقال قتادة : الامانة : الدين والفرائض والحدود . وقال بعضهم : « الفصل من الجنابة » . وقال مالك ، عن زيد بن أسلم قال : الامانة ثلاثة : الصلاة ، والصوم ، والاغسال من الجنابة . وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أتىب ، وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان

على ضعفه وجهه وظلمه ، إلا من وفق الله ، وبالله المستعان .

وما يتعلق بالامانة الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا « أن الامانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فملسوا من القرآن وعلموا من السنة » . ثم حدثنا عن رفع الامانة ، فقال : « بنام الرجل النومة فتقبض الامانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر [الوكت ، فتقبض الامانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر] المجل كجمر دمرته على رجلك ، تراه متبيراً وليس فيه شيء » . قال : ثم أخذ حصى فدرجته على رجله ، قال : « فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤذى الامانة ، حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجمله وأظرفه وأعقله . وما فى قلبه حبة من خردل من إيمان . ولقد أتى على زمان وما أبالى أنكم بايعت ، إن كان مسلماً ليردنه على دينه ، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه ، فاما اليوم فما كنت أبابع منكم إلا فلانا وفلانا » . وأخرجه فى الصحيحين (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ قال : « أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصديق حديث ، وحسن خليفة ، وعفة طعمة » (٢) .

وقد ورد النهى عن الخلف بالامانة ، روى أبو داود عن بريدة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف بالامانة فليس منا » ، تفرد به أبو داود ، رحمه الله (٣) .

وقوله تعالى : ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أى : إنما حمل ابن آدم الامانة وهى التكليف ليعذب الله المنافقين والمنافقات منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ويطنون الكفر متابعاً لاهله ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ، عز وجل ، ومخالفة رسله ﴿وَيُؤْتِ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى : وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .

(١) المسند (٥/٣٨٣) ، والبخارى (٦٤٩٧) ، ومسلم (١٤٣/٢٣٠) . وما بين المتوفتين من المسند .

(٢) المسند (٦٦٥٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٣) أبو داود (٣٢٥٣) ، وصححه الألبانى ، وانظر السلسلة الصحيحة (٩٤) .